

## مقدمات الاستتباع:

### الشرق موجود بغيره لا بذاته

المؤلف: غريغوار منصور مرشو

الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (هيرندن، فرجينيا)

الطبعة: الأولى 1416هـ/1996م (160 صفحة).

بدران بن الحسن\*

يعد هذا الكتاب الذي بين أيدينا حلقة مهمة في بناء منهجية التعامل مع الآخر الغربي، ذلك أنه يبحث في جذور الغرب الثقافية والمعرفية التي شكلت -ولا تزال- تعامله مع غيره، كما يبرز الكتاب الاستعدادات الثقافية التي مكنت الغرب من أن ييلور، بوساطتها صورة عن ذاته، ويشكل صورة مشوهة للآخر لتأكيد ذاته، والتمركز المستعلي على غيره. ويتناول مصادر خطاب السيطرة على البشر بعد السيطرة على الطبيعة، ثم الاستشراق، وأيديولوجية الهيمنة.

يقع الكتاب في 160 صفحة من القطع المتوسط، متضمناً تصديراً للدكتور طه جابر العلواني، ومقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

في التصدير أشار الدكتور العلواني إلى أن عنوان الكتاب "الاستتباع" يستدعي إلى الذاكرة مجموعة من المفاهيم والمصطلحات سادت في أوساط مثقفي الأمة منذ منتصف القرن الماضي، مثل: الاستعمار، والاستشراق، والاستغراب، والاستكبار، ... النظام العالمي الجديد والإرهاب، والأصولية، والظلامية ونحوها.

---

\* طالب بقسم الماجستير كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا.

والكتاب يستدعي هذه المفاهيم لأنه يعالج "حقلاً معرفياً" واسعاً يتصل بكل هذه المفاهيم. وهذا الكتاب يتناول الغرب بتحليل بنائه وأطره المنهجية، ومسلماته المعرفية (الأبستمولوجية) وفلسفته ونظرياته وقواعده المعرفية، وينقب عن كيفية تحول الغرب إلى المركزية في رؤيته لذاته وهميشه للآخرين، بل واستتباعهم.

ويشير إلى الطريقة التي تناول بها العقل المسلم ظاهرة الاستشراق، وأنها كانت دون مستوى الإحاطة بالظاهرة، وانعدام الاهتمام بتحليل البنى المعرفية والأطر المنهجية للاستشراق بوصفه حقلاً معرفياً نشأ في إطار العلم الغربي وفلسفته ونظرياته وأساسه المعرفية، وكان موضوعه الآخر غير الغربي، مستمراً في الشرق المسلم، وأن هذا الحقل المعرفي قد أسس لنفسه علوماً لبناء شبكات في الشرق المسلم، وأن هذا الحقل المعرفي قد أسس لنفسه علوماً لبناء شبكات المفاهيم الجديدة والمنظومات المعرفية المؤطرة في فلسفته (التصدير، 10).

في المقدمة يشير المؤلف عدة أفكار مهمة في سياق معالجته للموضوع، أهمها:

- التناول الاجتزائي للاستشراق: فيرى الباحث أن الكتابات حول الاستشراق ونتائجه منذ عقدين من الزمن ونيف، وقع معظمها ضحية منظورات اجتزائية لم تضع الاستشراق ضمن النسق المعرفي المؤسسي العام للحضارة الغربية، فهو ليس ظاهرة موازية للنسق المعرفي المؤسسي الغربي المهيمن ولا منقطعة عنه أو عرضية فيه، إنما على العكس استمدت جذورها من هذا النسق بكل مكوناته المعرفية والمذهبية، نسجت خيوطها في كنفه، وتشكلت جزءاً أساسياً في إنشاء نموذج (الدولة- الأمة) في الغرب.

- طرق الاستعمار في بسط الهيمنة: إذ لم يلجأ الاستعمار -في فرض هيمنته ونمط إنتاجه وإملاء شروطه، بوصفها حقيقة وحيدة لازدهار الحضارة- دائماً إلى سياسة النهب الخالص وسياسة المدفع السافرة، إنما اعتمد على أساليب أخرى أيضاً في مرحلة ما قبل الاستعمار المباشر، وذلك عن طريق الاتفاقيات التجارية والعسكرية والعلمية مع حكام دول الأطراف وتكوين أنصار وزبائن مفتونين بمبادئه وقيمه ومؤسساته في المجتمعات المحلية، والتسلل إلى الضمائر وتطويعها وتسخيرها لصالحه.

- عقدة التفوق الغربي التي تحكم الغرب، إذ لكي يستأثر بزمام المبادر في معالجة التاريخ العالمي يرفض الاعتراف بالقيم والرموز الخاصة بالثقافات المغايرة، أو بفكرة تاريخ متعدد، ويلجأ إلى تقطيع مجتمعات

الأطراف إلى شرائح وكيانات قبلية وطائفية، أو عرقية وإقليمية، وبحول تواريخ الشعوب إلى أصفار على هامش الحضارة، لا قيمة لها إلا بقدر اندماجها في دائرة السوق المتمم لحاجات إنتاجية المركز الأوروبي.

- الجذور الأيديولوجية والمعرفية للغرب: فالجذور الأيديولوجية للغرب ونظريته المعرفية تأسست ابتداءً من عصر النهضة، ومشروع الغرب يتجه نحو تطوير قيم أخلاقية جديدة متحررة شيئاً فشيئاً من الدين لصالح نظرية جديدة عن المعرفة، ممثلة في أولوية المعرفة الموضوعية المستمدة من مجالي التجريب والرياضيات.

- ذهنية الصراع والسيطرة على الطبيعة والإنسان التي تحكم الغرب في تعامله مع الشرق، ضمن تراتبية تنطوي على إقامة فوارق جوهرية ثابتة بينه وبين سكان الشرق، وجعل نفسه وصياً وحيداً في تقرير مصائرهم تحت شعار تحرير الوثنيين والكفار "الوحوش" أو "الهمج" من "الظلامية" و"العبودية".

بمقتضى هذه الاستراتيجية راح الغرب يُساوي نفسه مع التاريخ، وله وحده الاستحواذ على مواقع النجاح، ولو على حساب ثقافات وتواريخ الشعوب الأخرى ومحوها.

- نشأة (الأنثروبولوجيا) الغربية: فالغرب أنشأ هذا العلم لدراسة إنسان ما وراء البحار بمناهج جديدة تهدف إلى عزله عن كل الظروف الاجتماعية التاريخية ونكران ما يمثله من قيم ثقافية مغايرة. وحسب منظور (الأنثروبولوجيا) الغربية لم يعد ثمة شيء عقلائي، بالمعنى الحرفي سوى النظرية (الأنثروبولوجيا) "الإنسانية" عن ثقافة الشعوب التي اصطلح على تسميتها "بالبدائية" أو "الوحشية"، ولم يعد هناك من ثقافة سوى ثقافتهم من وجهة نظرهم هذه.

وإذا تم الاعتراف بعظمة حضارات الغير بمقدار استجابتها لمصالح وترميزات المركزية الغربية. (ص 19 - 21).

- (أيديولوجيا) الفتح، والتسوية لخطاب السيطرة: إن الخطاب المسيطر والمؤسس في القرن التاسع عشر، تحالف تحت قيادته الدولة المركزية الدستورية والعلم، والجيش والصناعة والكنيسة حاملة رسالة التبشير، لتوزيع المهام وتقاسم النفوذ ضمن استراتيجية منظمة روج لها رواد (أيديولوجيا) الفتح أمثال مونتسكيو هيجل وماركس ووايتفوغل...

في الفصل الأول من الكتاب تناول الكاتب مظاهر نشوء النظام الغربي مركزاً على كيفية اشتغال القوانين الجديدة التي تحكمت في الحملات التبشيرية والمهام التي كلفت بها لغزو ما سُمِّي بالشرق وتشويه صورته، ثم أبرز كيف انخرطت الدول الغربية، لحل مسائلها السياسية الداخلية، في الحملات التوسعية ما قبل الاستعمارية فيما وراء البحار، ثم كيف أسهمت في إضعاف الإمبراطورية العثمانية - التي كانت تشكل تحدياً سافراً للغرب آنذاك - وترسيخ الانشقاقات الطائفية والعرقية والقبلية والإقليمية بين الجماعات المتعايشة في ظلها.

وفي خمسة نقاط يتناول النشوء والنماء الذي سار عليه النظام الغربي؛ ففي النقطة الأولى يتناول عملية التداخل بين السلطة الدينية للكنيسة مع الغزوات التجارية (المركنتيلية)، إذ ستبلور (أيدولوجيا) تجعل من الربح قاعدة لـ"التقدم" ومن المبادلة الحرة أداة أكثر فعالية وضمانة لـ"الحضارة" وذلك حين تحولت التجارة عند التجار وأصحاب المصارف إلى "فضيلة" والمال إلى "صنم" بوصفهما شرطين أساسيين لضمان "النجاح" في الحياة العملية. (ص 28).

وفي مسار تشريع اللاهوت للناسوت "المركنتيلي" اضطرت كل الكنائس أن تتكيف مع التنمية الخارجية للروح التجارية أو التشجيع لها ثم الأخذ بالعقلية الصناعية... لقد أوجدت الرأسمالية روحها الخاصة، ووضعت الكنائس أمام ضرورة الاندماج بالقانون الطبيعي (للدولة- الأمة) (ص 35-36).

وفي النقطتين الثانية والثالثة: تناول الصراع الذي حدث بين الكنائس على الشرق ودخول البروتستانت (protestant) حلبة المنافسة لما كان للمراسلين الكاثوليك من نشاط مكثف، وفي خِصَم هذا الصراع كان نشر "الإيمان المسيحي" يجري من خلال ثلاث قنوات: الصحافة والإرساليات ثم الطباعة لكونها وسيلة فعالة لنشر الأفكار. (ص 45).

أما النقطة الرابعة فيتناول فيها اشتداد الهيمنة الأوروبية على الشرق الأوسط في مختلف المجالات في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، بخاصة في عهد محمد علي باشا إثر الشروع في "التنظيمات" الإصلاحية عام 1839م.

وقد قدم المؤلف في هذا السياق حشداً من المعلومات عن الإرساليات الغربية وعن أنشطتها المتشعبة والفعالة. بين أهل الشرق، مبيناً ارتباطاتها المباشرة باستراتيجيات الدول الغربية.

وأما في النقطة الخامسة فقد تطرق الباحث إلى النتائج الضارة التي سببتها الإرساليات الأجنبية بمختلف أنشطتها سواء للمسلمين أو للمسيحيين الشرقيين أو غيرهم، إذ في إطار التوسع الاستعماري وترسيخ دعائم السيطرة الأوروبية في وعي الأهالي، خاصة باحتواء الأقليات الدينية والمذهبية والإثنية، ثم استقطابها، ثم عزلها وجعلها معادية لقيمها ومحيطها الديني الثقافي والحضاري. وكانت أهم هذه النتائج الضارة تتمثل في: تأصيل الطائفية، وتفاقم الصراع بين الجماعات، وغرس المشروعين الانفصاليين الماروني، واليهودي.

فمن أجل تأصيل الطائفية، أنشأ النظام الغربي قاعدة للطائفية بزعه لفكرة "الدولة - الأمة (nation-state) المجدد للطائفية نظاماً اجتماعياً، وقد ربطت هذه الدولة عمودياً بدول المركز وبمجلتها الاقتصادية، وقام بتلغيم القواسم المشتركة ووسع هوة الفوارق الاجتماعية وأثار النزعات الطائفية بين الجماعات الدينية والمذهبية والعرقية.

أما فيما يخص تفاقم الصراع بين الجماعات، فهو على ضربين: صراع بين الجماعات الدينية والمذهبية والعرقية، وصراع من مستوى آخر، وهو صراع النخبة المتغربة مع الأغلبية الشعبية.

لقد لاحظنا سابقاً ضمن استراتيجية التغلغل التبشيري، أن كل القوى الاستعمارية حاولت أن تدعم بطريقة منفردة أو مشتركة، جماعة على حساب جماعة أو جماعات أخرى، متعايشة سابقاً في ظل الخلافة العثمانية، من أجل مد هيمنتها وتكريسها على الخلافة العثمانية وتفكيكها، ثم الوصول إلى اصطناع دويلات مبنية على قواعد عرقية وطائفية وقبلية وإقليمية وجمهورية. لكن المشروعين الذين استأثرا أكثر من غيرهما باهتمام القنصليات الأجنبية، في القرن التاسع عشر، هما إنشاء كيانين لليهود الأوروبيين والآخر للمسيحيين المحليين، وبالتحديد الموارنة، ليكونا منزلة حصنين متقدمين للمركزية الغربية في الشرق الأوسط ومنطلقين للمرافعة عن "العالم الحر".

وفي الفصل الثاني المعنون "من السيطرة على الطبيعة إلى السيطرة على البشر" قام الكاتب بتحليل الكيفية التي تمت بها بلورة مفاهيم المركزية العرقية الغربية، وكيف تضافرت هذه المفاهيم مع حملات التبشير باسم "العقل" و"العقلانية" أو "الموضوعية العلمية".

ولإبراز المعايير والقيم والعادات الذهنية التي تسكن الخطاب التاريخي المتعالي للنظام الغربي الصاعد، قام الباحث بمقاربة تلمس المقدمات والعناصر الإجرائية المنظمة و "المعقلنة" التي مكنت هذا النظام من تدعيم أسس الاستشراق، كعنصر مكتمل لهيئته، وتبيان كيفية المحاججات "العقلانية" التي سمحت له بفرض ثقافته على الشعوب المهمشة وخاصة بعد "عصر الأنوار".

هذه المقاربة تناولها في عناصر أربعة: مصادر الخطاب الكوي في منعطف القرنين السادس عشر والسابع عشر، والعرقية المركزية الكامنة في الخطاب الكوي، والحروب بوصفها صمام أمان "للدولة-الأمة"، ثم استغلال أسطورة "الإنسان المتوحش الطيب".

فالمثقفون في أوروبا في بداية عصر النهضة انكبوا على استنطاق أنفسهم حول الأسباب التي تم إنشاؤها عن طريق الملاحظة الحسية من أجل توسع الحد الأقصى من فضاء السيطرة على الطبيعة. ومع توسع التجارة، وظهور علم (الأنثروبولوجيا)، وُلدت شبكة مؤسسية من المعارف السياسية و (الأيديولوجية)، فمكيافيلي عندما اكتشف التاريخ الروماني بحث فيه عن القوانين الأبدية لسيطرة البشر بعضهم على بعض، في كتابه "الأمير"، وظهرت نظريته في العصر التالي مع مذهب "المصلحة العليا للدولة" التي ما كان لها أن تقوم لولا تبرير وسائل السيطرة الوحشية...، فمكيافيلي بمبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" الذي كان خلاصة كتابه أسس للغزو الاستعماري وأخلاقه النفعية.

أما هوبس فقد دفع بهذا المفهوم إلى الحد الأقصى، واعتبر الحرية ليس شيئاً غير غياب كل ما يحول دون الحركة، كما أعلن أن على الدولة أن تضع الكنيسة والدين في خدمتها، ثم كوندورسييه، وديكارت الذي قدم حججاً (للأيديولوجية) الكاثوليكية وشجعها على تكييف لاهوتها مع التقدم والارتقاء الثقافي العقلاني بوجه كوي.

ومع هيجل كشف الخطاب الكوني للغرب عن عرقته المركزية الكامنة، ذلك أن هيجل لكي يدعم خطابه ويتفادى تحديد نفسه فقط بخطاب كوني متعارف عليه في عصره لجأ إلى التاريخ اليوناني الذي يعتبره المنطلق العام للتاريخ الإنساني برمته، وهو في أطروحته ينطلق من شقين: في الشق الأول يشيد بالتاريخ الغربي مرجعاً واحداً جديراً بالاعتبار. أما الشق الثاني فيحط من شأن تاريخ الحضارات المسماة بالشرقية ويعتبرها مرحلة زائلة.

فالجدلية الفكرية عند هيجل لا تتجاوز حدود الغرب، وكل فكر خارج هذه الحدود موسوم بالظلامية والاستبداد وانعدام الحرية والتاريخ.

هذه التعميمات تحولت إلى بدايات تعزز خطاب المركزية الغربية عن طريق "العلوم الإنسانية"، في إطار التطورية الداروينية- السبنسرية، والوضعية الأوغست- كونتية، ولا مادية التاريخية (ص 77-80).

ضمن هذا المنظور العام ستغدو كل المسوغات العقلانية ناجزة لشن الحملات والحروب على هذه الأمم الموسومة بـ "غير المتحضرة" وقد أصبحت، لاحقاً، حقاً قانونياً ومطلباً حيوياً "للدولة- الأمة" الغربية.

ولإنقاذ المجتمع المدني الغربي من الركود والموت يقترح هيجل سلسلة من العلاجات تنطوي على القيام بالحرب والاستعمار. فالحرب لها الفضل في إعادة بناء التجانس الوطني تجاه التهديد مقبل من الخارج، والاستعمار سيسمح للدور الغنية بالتخلص من غير المرغوب فيهم.

أما أسطورة "الإنسان المتوحش الطيب" الموروثة عن العصور الوسطى وعصر النهضة فقد رسخت في الأذهان على شكل استيهامات غرائبية حتى بات الاستعمار يعد عملاً إنسانياً يسوغ غزو الشعوب "الوحشية" و"الكسولة"، أي: العاجزة عن الإنتاج واستغلال الثروات الطبيعية. الأمر الذي يشير شهوة التوسع والهيمنة عند الغزاة.

أما الفصل الثالث فقد تناول فيها الاستشراق و(أيدولوجية) الهيمنة: فلكي تُنفي الدوائر الاستعمارية على (أيدولوجيتها) التوسعية صبغة قانونية وعقلانية كان عليها أن تقدم علومها في مجال الإنسان بصفة علوم حيادية عالمية شبيهة بالعلوم الطبيعية... ولم تتردد "العلوم الإنسانية" في توظيف أسطورة الإنسان

المتوحش" بما يخدم مصالح دولها. والقصد ليس تجريده من مزاياه الفكرية فحسب، إنما هو تأسيس خطاب علمي مخصص للآخرين يبرز للمركزية العرقية الغربية زعزعة ثقة الشعوب الشرقية بذاتها وبمعاييرها وتدمير مجتمعاتها وعوامل الاستمرارية عندها، ولعل هذا ما جعل العلماء على الرغم من اختلاف مشاربهم (الأيدولوجية) يجمعون على إسقاط أحكام معيارية مسبقة الصنع على الشرق وإصاق كل النعوت السلبية به: من قبيل الاستبداد، والتأخر، والكسل، واللاعقلانية، واللاتاريخية.

من أجل "البحث عن آدم جديد" للأوروبي الأبيض والمتفوق والعنصري، عمل الاستشراق على خطين: الوعي واللغوي بمنظار أوروبا ومقاييسها، والميل إلى التجزئة والتفريع وإعادة التجزئة لمباحثه دون أن يغير من رأيه حول الشرق.

لقد بدا العرق واللغة مرتبطين بطريقة مبهمة عند المستشرقين، وصار الشرق "الخير" حقبة كلاسيكية مضت، موضوعة في مكان ما من الهند منذ زمن سحيق، بينما الشرق "السيء" ما يزال بجوهره في آسيا اليوم وفي أقسام من إفريقيا الشمالية، وفي كل مكان حيث يوجد الإسلام.

أما الحتمية العرقية التي نهجها علماء اللسانيات والسلالات فقد أدت إلى جعل العرق صنماً محركاً للتاريخ على يد شارك كونت، وفيكتور دوليل، وغوينو الذي يرى أن العرق الأبيض يظهر فيه بوضوح الجمال والذكاء والقوة، ويمتلك عنصرين أساسيين لكل حضارة هما: دين وتاريخ، فضلاً عن اجتماعيته المحضرة وتفاوته وتوسعه عن طريق الغزو (ص 95).

أما أرنست رينان فيرى أن العرق السامي يعتبر شكلاً منحطاً ذا تركيب أدنى من الطبيعة الإنسانية بالمعنى الأخلاقي والبيولوجي (ص 96)، يستثنى اليهود بإدراجهم في دائرة المركزية العرقية الغربية بدعوى أن العرق "الإسرائيلي" قدم للعالم أكبر الخدمات العظيمة (ص 97).

والخط نفسه سار عليه كوفيه، وسانت فانسان، وكاتروفاج، ودوبلاج في فرنسا وتوما أرنولد، وكنوكس وداروين وسبنسر في بريطانيا ثم في الولايات المتحدة على يد ميرتون، وجيرون، ونوت من دعاة الأشكال



المتطرفة للنظرية العنصرية المعادية للسود، وبلغ الخطاب العرقي العنصري على يد علماء الأنااسة الألمان ابتداء من القرن التاسع عشر حداً متطرفاً مع مبدأ تفوق العرق الجرمانى.

وتحت قيادة هذا الخطاب "العلمى" المسيطر والمؤسس فى القرن التاسع عشر تحالفت الدولة الممركزة الدستورية، والعلم، والجيش، والصناعة والكنيسة لتوزيع الأدوار وتقاسم المهمات ضمن استراتيجية منظمة، تراوحت مهماتها حسب الظروف، بين مطاردة السكان المحليين وتهميشهم وبين تسخيرهم وتصفيتهم. كل ذلك باسم الحضارة والحرية وحقوق الإنسان، وتقدم الإنسانية. هذا التقدم: (الاستعمار والتحضير) نظر له كل فلاسفة أوروبا من (أوغست كونت)، وهيجل، إلى المدرسة الماركسية التي لم تفلت من الأسطورة الخاصة بالتقدم الأحادي والحتمى للإنسانية، ولم ينقطعاً معرفياً ولا إيديولوجياً مع ثوابتهما الداعية إلى رسالة حضارية فى الشرق، وفى الحقيقة ما قامت به الماركسية فى أديباتها حول الشرق كان امتداداً للمدرسة الاستشراقية (الليبرالية).

وخلاصة الكلام حول الاستشراق و(أيدىولوجية) الهيمنة التي أنتجها أن ما يريده المنظرون والمستشرقون هو وضع شعوب الشرق أمام خيارين لا ثالث لهما، إما الرضوخ النهائى لمنطق الغرب، وإما أنها ستظل تعتبر، من قبل الخارج، محكومة بعدم قدرتها على مواجهة الحياة.

وأما فى الفصل الأخير فقد تناول المؤلف "حملة بونابرت على مصر" التي هي نموذج تطبيقي للأدوات والرميزات والتصورات الغرائبية التي يحملها الغرب نحو الشرق.

إذ الحملة على مصر -حسب رأى الكاتب- لم تكن ثمرة مشروع عرضى من بنات فكر نابليون أو عبقريته الأسطورية، إنما جاءت نتيجة تراكم لكل المشاريع السابقة التي كانت متداولة فيما وراء الكواليس، وما كان نابليون فيها إلا الأداة الجامعة المنظمة والمنفذة، خدمة للمصالح العليا للدولة الفرنسية.

كان بونابرت ينوي إلحاق الإسلام بالمركزية الأوروبية ومن أجل تحقيق هدفه حاول بث التفرقة العرقية بين المماليك والمصريين من جهة، وبين العرب الاجتماعى والعثمانيين من جهة ثانية باسم الإسلام، ثم تعميق

الشقاق والصراع الاجتماعي ما بين الأديان والمذاهب باسم تقديم حلول علمانية زمنية مستمدة من مبادئ عصر الأنوار، للأقليات الدينية والمذهبية.

استخدم نابليون مجموعات من النخب المحلية لضمان سريان أوامره، وعمل على تأييد المارونيين، واستعطف اليهود ودعاهم إلى النهوض لتحقيق مطالبهم والاستغلال الفرصة للعودة إلى أرض الميعاد.

ورغم أن احتلال بونايرت لمصر باء بالفشل على الصعيد العسكري، إلا أن آثاره لا تزال حتى اليوم تسيطر على منظوراتنا الثقافية والسياسية، ولقد انقسمت غالبية النخب المحلية المحدثة إزاء هذه الحملة إلى اتجاهين: الأول رأى فيها منعطفاً حاسماً في تشكل تاريخهم الحديث، لكونها كانت مبعثاً على "النهضة العربية" بفعل آليات المتاقفة مع الآخر الغربي. أما الثاني: فيتمثل في التوفيق ما بين العلوم الحديثة المستجلبه والتراث العربي الإسلامي، وذلك بتطويعه للنموذج الغربي.

ولا يزال الصراع يدور بشكل سحالي دون نقاط مضيئة حول الأسس المشتركة لتحقيق النهضة. في الخاتمة يناقش الباحث فكرة تجاوز الغرب لمقولاته المعرفية، غير أن الباحث -وأظنه محقاً في ذلك- يرى أن لا نستعجل ونعمم الحكم على غالبية (الأنثروبولوجيين) والمؤرخين والمستشرقين بأنهم قد قطعوا، من حيث المضمون، مع مركزية النظام الغربي لكونهم انتقدوه أو انتقدوا مظاهره.

ذلك لأن عملية القطيعة تستدعي إعادة نظر جذرية في العديد من المسلمات الغرائبية والاستيهامية الثاوية في النظام المعرفي الغربي المؤسسي، ولا يكفي أن تطلق صفة القطيعة حتى يسلم آلياً بكل أشكال التطبيقات المعرفية وما تتضمنه من إسقاطات ماسخة على شعوب الشرق وثقافته.

إن أي ترويج اعتباطي لمفهوم القطيعة -دون قيام نوع من علاقة المحاور المتفاعلة بين الغربي والطرف الآخر- يعتبر إضافة أيديولوجية إلى جملة ما هو سائد.

هذا وإن الكتاب مليء بالأفكار يحتاج إليه كل مثقف يريد لنفسه أن يتفاعل إيجابياً مع الغرب المهيمن بخيله ورجله وأفكاره وإنتاجه، ذلك أنه يبحث في الجذور المعرفية التي أسست للخطاب الغربي المستعلي، ويقوم بالحفر في عمق مدلولات الخطاب ليبرزها، ويناقش "حقلاً معرفياً" يحتاج إلى ارتياد الكثير

من ذوي البصائر وأولي الألباب، حتى يؤسس التعامل مع الغرب على علم، وتختصر الكثير من المعارك الوهمية  
وتقتصد الجهود، والله أعلم.